

الفصل الثاني

لمحة تاريخية عن التصوف الإسلامي والطرق الصوفية

المبحث الأول : مفهوم التصوف الإسلامي لغة واصطلاحاً، ونشأة

المطلب الأول : مفهوم التصوف الإسلامي لغة

المطلب الثاني : مفهوم التصوف الإسلامي اصطلاحاً

المطلب الثالث : نشأة التصوف الإسلامي

المبحث الثاني : نشأة وأهمية الطرق الصوفية

المطلب الأول: نشأة الطرق الصوفية

المطلب الثاني: أهمية الطرق الصوفية

المبحث الثالث : التصوف الإسلامي بين القول والرفق

المطلب الأول: آراء وأدلة المؤيدين للصوفية

المطلب الثاني: آراء وأدلة المعارضين للصوفية

الفصل الثاني: لمحة تاريخية عن التصوف الإسلامي والطرق الصوفية

تمهيد:

يعد التصوف الإسلامي من العلوم الإسلامية التي تتميز بجذور تاريخية ودراسات قديمة وحديثة، فقد حظى باهتمام ملحوظ من قبل الباحثين والمختصين في مجال التصوف الإسلامي والحركات الدينية على حد سواء .

ولأهمية ذلك سيتطرق الباحث إلى دراسة تاريخية عن التصوف الإسلامي والطرق الصوفية، من حيث مفاهيم التصوف الإسلامي اللغوية والاصطلاحية التي تعددت نتيجة للاهتمامات المتزايدة من قبل أهل التصوف الإسلامي والمختصين في الشأن الصوفي، وبعد ذلك يتم التعرّيج على نشأة التصوف الإسلامي عبر مراحل التاريخ ، وصياغته في الطرق الصوفية المعروفة في الواقع الإسلامي الحالي.

وستركز الدراسة على نشأة الطرق الصوفية في العالم الإسلامي وأهميتها حيث إنهما قدمت خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، فساهمت إسهاماً كبيراً في ترسيخ العقيدة الإسلامية في عدد من البلدان الإسلامية، حيث انتشر فيها الإسلام وبقي أهلها على العادات الوثنية، كالسودان مثلاً، وبعد ذلك يدرس الباحث التصوف الإسلامي بين القبول والرفض في المجتمعات الإنسانية .

المبحث الأول: مفهوم التصوف الإسلامي لغة واصطلاحاً ونشأته

المطلب الأول: مفهوم التصوف الإسلامي في اللغة

لقد اختلفت أقوال العلماء القدامى والمحدثين والمختصين في العلوم الإسلامية عامة والتصوف الإسلامي خاصة على اشتقاق كلمة التصوف، وتوجد آراء كثيرة ووجهات نظر مختلفة، جاء بعد الفقهاء والعلماء والمستشرقين وغيرهم في أصل كلمة التصوف، حيث شغلت الكثير من العلماء والباحثين والمختصين على مختلف مستوياتهم ومشاربهم وأزمנתهم، وهي لا تخرج من الاشتقاقات والمصادر التالية :-

اشتقاقها من الصوف: يرجع بعض العلماء والباحثين اشتقاق كلمة التصوف الإسلامي إلى لباس الصوف . حيث كان هناك قوم اختصوا بلباس الصوف، اتباعاً لسنة نبيهم محمد . صلى الله عليه وسلم . الذي كان يلبس اللباس الخشن من الصوف، وكذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . حيث اقتدوا برسولهم في لبسه للصوف، إضافة إلى أنه لباس الفقراء والزاهدين في الدنيا وتاركي ملذاتهم، المتعبدون لله تعالى في كل وقت وحين، خوفاً منه وتضرعاً إليه ولا يشغلهم شيء في الدنيا إلا مرضاة الله عز وجل، ويؤيد صاحب اللمع (ت 387هـ 988م) هذا الرأي القائل باشتقاق ويعلله بقوله: لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام، وشعار الأولياء والأصفياء، ويكثر ذلك في الروايات والأخبار، فلما أضيفت الصوفية إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسماً جماً عاماً مخبراً عن جميع العلوم والأعمال

والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة.. والصوفية نسبوا إلى ظاهر اللباس، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بما مترسمون"¹.

ويقول الحسن البصري رحمه الله إن اشتقاق كلمة التصوف كان نسبة للباس الصوف، اقتداءً بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، الذين كانوا يلبسون الصوف الخشن، ويضيف الحسن البصري على ذلك إن الرسول صلى الله عليه وسلم حث أصحابه على لبسه لما فيه من حلاوة الإيمان، كما أن لباس الصوف كان يختص بأغلبية الفقراء، والذين لا يملكون قوت يومهم، ولا يملكون شيئاً في الدنيا سوى العمل للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ليفوزوا بالجنة.

وذكر الحسن البصري - رحمه الله - قوله "أدرکت سبعین بدریاً أكثر لباسهم من الصوف وروي عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يركب الجمال، ويلبس الصوف، ويعقل الشاة، ويأتي مراعاة الضعيف . وكذلك حث النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه على لبس الصوف، بقوله: عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم"².

1 - أبي نصر السراج الطوسي. 1423هـ - 2002م. اللمع. تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود: (القاهرة- مصر). الناشر مكتبة الثقافة الدينية. ص 40.

2 - أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمى المتوفى سنة 412هـ. 1414هـ - 1993م. تسعة كتب في أصول التصوف والزهد. حققها وعلق عليها الدكتور سليمان إبراهيم آتش: (القاهرة - مصر). الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. الطبعة الأولى. ص6.

كما أن النسبة إلى ظاهرة اللباس ليست بجديدة في العلوم الإسلامية، التي قد تنسب إلى مجموعة من القوم بمجرد اللبسة، فحيث يوجد قوم نسبوا إلى صفة ما نتيجة للباسهم، إن صلحت سرائرهم . فعلي سبيل المثال : إن "كلمة الحواريين فهي مصطلح أطلقه القرآن على من آمن بنبي الله عيسى . عليه السلام . ونصره وصدقته من بني إسرائيل، والتحوير في لغة العرب هو التبييض . وقد نسب أتباع سيدنا عيسى عليه السلام إلى هذا المصطلح، لأنهم كانوا يلبسون الحواري من الثياب ويصبغونها، فنسبهم الله تبارك وتعالى إلى ظاهر لبسهم"¹ .

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي جاءت تتحدث عن القوم الذين آمنوا بنبي الله عيسى عليه السلام وكل من نصره، واختصوا بصفة الحواريين، وإن صفة الحواريين التي خص بها الله عز وجل نصارى عيسى عليه الصلاة والسلام نسبة للباسهم الأبيض، تدعم رأي الذين يرجعون اشتقاق كلمة الصوفية إلى لباس الصوف، الذي نسب إلى القوم الذين كانوا يجذون لبسه أو ارتدائه . فقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾² .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ نَسْتَعِيجُ رَبُّكَ أَنْ نُنزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾³ .

1- الشيخ عبدالمحمود الحفيان ابن الشيخ الجيلي . 1425 هـ 2004م . موسوعة نظرات في التصوف الإسلامي المصطلح والمفهوم:

(الخرطوم - السودان) . دار السداد للطباعة . المجلد الأول . الطبعة الأولى . ص ص 76 - 77 .

2 - سورة آل عمران: الآية 52 .

3 - سورة المائدة: الآية 112 .

إن اشتقاق كلمة التصوف الإسلامي نسبة إلى لباس الصوف، ترتبط بالتواضع لله تعالى، والزهد في نعيم الدنيا، رغبة في كسب الأعمال الصالحة، كوسيلة للتقرب من الحق عز وجل وهذه من سمات الأنبياء والصالحين، والافتداء بالرسول صلي الله عليه وسلم الذي لبس الخشن وأوصى أصحابه بلبسه، وإن ذلك ليحمل الكثير من معاني التواضع وحلاوة الإيمان.

اشتقاقها من الصفة: أصحاب هذا الرأي يقولون: إن اشتقاق كلمة التصوف من الصفة نسبة لأهل الصفة، والصوفية هم أناس، قريبة أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين يقطنون مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم، وانشغلوا بطاعة الله عز وجل تضرعا وخفية، وبتلاوة القرآن الكريم، ودراسة الفقه، ولا تهمهم مشاغل الدنيا وما فيها من ملذات ومتاع، والصفة مكان في مؤخرة مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم إلى الجهة الشمالية .

وأهل الصفة "هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض، وعصمهم من الإفتتان بما عن الفروض وجعلهم قدوة للمجردين من الفقراء، كما جعل من تقدم ذكرهم أسوة للعارفين من الحكماء لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا يلههم عن ذكر الله تجارة ولا مال، لم يزنوا على ما فاتهم من الدنيا ولا يفرحون إلا بما أيدوا به من العقبي. كانت أفراحهم بمعبودهم ومليكهم وأحزانهم على فوت الإغتنام من أوقاتهم وأوراقهم"¹.

1 - الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن اسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني. 1988م. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (بيروت - لبنان) دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. ص 337.

ويستند أصحاب نسبة الصوفية إلى الصفة على الكثير من الآيات القرآنية التي أمر بها الله تعالى نبينا محمد صلي الله عليه وسلم بالجلوس مع أهل الصفة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾¹. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾². وقال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾³. وقوله عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾⁴.

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية: "إن نسبة للتسمية إلى أهل الصفة غير صحيح، لأنه لو كان كذلك لقليل: صفي، وقيل نسبة إلى الصف المقلم بين يدي الله، وهو أيضاً غلط، فإنه لو كان كذلك لقليل: صفي، وقيل نسبة إلى الصفة من خلق الله وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقليل: صفوي، وقيل: نسبة إلى صوف بن بشر بن أدهم بن طلحة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضاً، لأن هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند أكثر النساك،

1 - سورة الكهف: الآية 28.

2 - سورة الإنعام: الآية 52.

3 - سورة التوبة: الآية 108.

4 - سورة النور الآية 37.

ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام"¹.

اشتقاقها من الصفاء: لقد نسبت كلمة الصوفية إلى الصفاء، نسبة إلى صفاء المتصوفة ونقاء سريرتهم وصفاء قلوبهم ونفوسهم وأرواحهم، فهم العباد والزهاد والسائقون في مرضاة الله تعالى، المحذون للخلاء والابتعاد عن الناس، لتهديب النفس وجعلها متعلقة بخالقها وتصفيتها من الكدورات المدمومة والنوايا الشريفة، ويعملون بكل جهد وإخلاص على اتباع سنة رسولهم محمد صلي الله عليه وسلم.

ويرى الإمام الكلاباذي (ت 380هـ 990م) أن اشتقاق التصوف من الصفاء . فقال:
"طائفة إنما سميت الصوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها"².

وكانت نسبة الطائفة الصوفية إلى الصفاء لأن نفوسها صفت لطاعة الله عز وجل، والابتعاد عن جميع البلايا والخطايا والمنكرات، والصفاء صفاء القلوب، وهو دليل المؤمن في الوصول والتقرب إلى الله تعالى، وإسقاط الأعمال الشريفة التي لا ترضى الواحد الأحد،

1 - شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. 1418هـ 1997م. مجموع فتاوى. جمع وترتيب الفقير إلى الله عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي رحمه الله. كتاب التصوف. المجلد الحادي عشر. ص 6.
2 - أبي بكر محمد بن إسحق الكلاباذي. المتوفى سنة 380هـ. 1422هـ 2001م. التعرف لمذهب أهل التصوف: (بيروت - لبنان). دار الكتب العلمية. ص 13.

وصفت قلوبهم من جميع المنكرات والشبهات، وصفا تعاملهم مع الخالق، وهم قوم يسعون بالجد في التقرب إلى الله عز وجل بصفاء ونقاء .

اشتقاقها من الصف الأول: ذهب قوم إلى أن اشتقاق كلمة التصوف جاء من الصف الأول، وذلك ممن صفت قلوبهم وأعمالهم وسرائرهم، فأصبحوا في الصف الأول بين يدي الله تعالى، بارتفاع هممهم إليه ووقوفهم خوفاً وطمعاً لطاعته عز وجل، وحرصهم على لقائه بقلوب بيضاء وصالفة وخالية من كل الأعمال الشريرة، والنسبة كانت إلى "الصف الأول في الصلاة في محل القرب من الحق بين الناس، كما يتميز أصحاب الصف الأول عن غيرهم"¹.

ونسبة طائفة الصوفية للصف الأول تعبر عن أسرارهم وبواطنهم والزهد في الدنيا، والصوفي هو من صفى الله سره، ونور قلبه بتلاوة القرآن الكريم، وتذوق حلاوة الإيمان قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح، قيل: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإجابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من تجافى عن الدنيا نور الله قلبه"².

وقد اعترض القشيري علي نسبة اشتقاق الصوفية من أهل الصفة "بقوله: من قال إنهم

منسوبون إلى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو

1 - محمد مصطفى. 1307هـ- 1986م. علم التصوف: (القاهرة - مصر). الناشر مطبعة السعادة للطباعة والنشر والتوزيع. ص 13.

2 - أبي بكر محمد بن إسحق الكلاباذي. مرجع سابق. ص 14.

الصوفي، ومن قال إنه مشتق من الصفاء؟ فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، وقول من قال: إنه مشتق من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف"¹.

اشتقاقها من صوفه : يقال إن أصل كلمة الصوفية من صوفة الغوث بن مر الذي

ينتمي إلى قبيلة صوفة، والصوفيين هم أول من قاموا بخدمة الكعبة، وأن غايتهم المثلى هي الوصول إلى الله تعالى، بكل يسر وعسر، حيث أنهم تركوا ملذات الدنيا واشتغلوا بالعمل للأخرة، وصوفة "إنها نسبة إلى قبيلة من العرب كانت تنسب إلى رجل منها يقال له صوفة واسمه الغوث بن مر، وسبب نسبة الصوفية إليه، على حد قول الراوي: أنهم رأوا أن أول من انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام هو هذا الرجل الذي يدعى صوفة، ولقد تكلم شيخ الإسلام عن هذه النسبة إلى صوفة المذكور فأجاز وقوعها من حيث اللغة"².

اشتقاقها من الصوفة : يعتقد أصحابه أن كلمة التصوف مشتقة من الصوفة، أي

الرجل الذي يزهد في الدنيا، ويتعبد الله تعالى، ويعمل في طاعته ويستخلى إلى أماكن مهجورة من الناس لتلاوة القرآن الكريم وتعليم الفقه والعبادات، والصوفي بتواضعه وزهده في الدنيا وترك ملذاتها وخيرها وشرها، فهو كصوفة الأغنام المطروحة على الأرض من كثرة أخلاقه

1 - الإمام أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري المتوفي سنة 465هـ. 1422هـ - 2001م. الرسالة القشيرية. : (بيروت - لبنان). منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة. ص 312.

2 - أحمد بن محمد بناني. 1306هـ - 1986م. موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية: (الرياض - السعودية). طبع بمطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر. الطبعة الأولى. ص ص 68 - 69.

وتعلقه بطاعة الله تعالى، ولا يوجد في صدره شيئاً إلا ما يقوده إلى طريق الحق والخير،
"والصوفي في زهده وتواضعه وافتقاره واستكانته وكذا في التخفي والتواري عن إظهار مقامه،
إنما هو كالصوفة الملقاة على الأرض والخزقة التي لا يبالي بها أحد، فهو زاهد مستكين
متمسك لله"¹.

وأخيراً يرى الحافظ أبو نعيم التصوف: "اشتقاقه عند أهل الإشارات والمنبئين عنه
بالعبارات من الصفاء والوفاء، واشتقاقه من حيث الحقائق التي أوجبت اللغة فإنه تفعل من
أحد أربعة أشياء من الصوفائة وهي بقلة وغباء قصيرة، أو من صوفة وهي قبيلة كانت في
الدهر الأول تجير الحاج وتخدم الكعبة، أو من صوفة القفا وهي الشعيرات النابتة في متأخره،
أو من الصوف المعروف على ظهور الضأن"².

المطلب الثاني: مفهوم التصوف الإسلامي اصطلاحاً

اختلف العلماء والباحثون ومشايخ الصوفية في تحديد مفهوم الصوفية، حيث تباينت
الآراء وتنوعت الكلمات، وتعددت تعريفاتها تعدداً كبيراً يثير الاستغراب مقارنة بالعلوم
الإسلامية الأخرى، ويصل إلى ألف مصطلح تقريباً، وكل التعريفات لها وزنها وقيمتها، ومهما
تعددت تعريفات الصوفية لأسباب متفاوتة ومختلفة وتنوعت طرقها وأساليبها، فإنها لا توجد

1 - ياسين رشدي. 1413هـ - 1993م. الطريق إلى الله: التصوف ماله وما عليه: (القاهرة - مصر). نخضة مصر للطباعة والنشر
والتوزيع. سلسلة كتب إسلامية (10). الطبعة الثانية. ص 12.

2 - الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن اسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني. مرجع سابق. ص 17.

إلا صوفية واحدة بغاياتها وعقيدتها، وهدفها التقرب إلى الله عز وجل، وممارسة الشريعة الإسلامية عملياً ورغم المحاولات المتكررة التي ساهم فيها الكثير من الباحثين لتحديد مفهوم خاص للتصوف مثل نيكلسون، ولكن لم يوفقوا في ذلك، وقد ذهب ابن خلدون إلى أنه يصعب الوصول إلى تعريف التصوف تعريفاً جامعاً لسببين: "إن هذه التعريفات التي وضعها بعض الصوفية لم يقصد بها تعريف علمي شامل، بل قصد بها التعبير عن أحوال خاصة في لحظات معينة محدودة، فهي تعبير عن مواجيدهم وأحوالهم، كما أن سرعة التطور شملت كل مرافق الحياة الإسلامية، واتسع مع اتساع الدولة الإسلامية، التي اشتملت على بلاد ذات ثقافات مختلفة، فدخلت في المجتمع الإسلامي ثقافات وأفكار جديدة، كانت ذات أثر بعيد في تعدد تعريفات التصوف".¹

فبدأ من تعريف الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى فقد قال: الصوفي "هو في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو - أي الصوفي - الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه مكان الصديق، من أهل هذه الطريقة، كما يقال: صديقوا العلماء وصديقوا الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم"².

1 - صابر طعمية. 2005م. التصوف والتفلسف الوسائل والغايات: (القاهرة - مصر). الناشر مكتبة مدبولي للطباعة والنشر والتوزيع.

ص 14

2 - شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. 1985م. مجموع فتاوي. جمع وترتيب الفقير إلى الله عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي رحمه الله: (بيروت - لبنان). مطابع دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع. ص 17.

يقول أبو القاسم الجنيد عن التصوف إنه "تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة"¹.

وفيه من التعريف الذي قدمه أبو القاسم الجنيد، أن هناك شروطاً للدخول في التصوف، أبرزها تصفية القلوب من الكدرات والصفات الرذيلة، وإحلاله بحلاوة الإيمان والصفات الروحانية والرضى بأمر الله عز وجل، واتباع السنة المحمدية في الباطن والظاهر، وأن الصوفي المخلص يلتزم بالشريعة الإسلامية قولاً وعملاً، والتغلب على الصفات البشرية الرديئة، والتمسك بالصفات الزكية والطيبة التي تتوافق مع العلوم الإسلامية، وحسن المعاملة مع كافة الخلق، والإخلاص في طاعة الله تعالى خشيةً وطمعاً، واتباع سنة رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

يقول الشيخ أحمد زروق - رحمه الله - : "التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقهاء لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة

1 - حسن عباس زكي. جمادى الآخرة 1424 هـ أغسطس 2003 م. الإسلام والعقل. مجلة البحوث والدراسات الصوفية شهر: (القاهرة - مصر). تصدر عن المركز العلمي الصوفي بالعبادة المحمدية. العدد الأول. ص 123.

بالأحكام، والأصول علم التوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان،

كأطب لحفظ الأبدان، وكالنجو لإصلاح اللسان، إلى غير ذلك"¹.

يستنتج من تعريف الشيخ أحمد رزوق أن التصوف الإسلامي كله جد وعمل و من

أجل إصلاح القلوب، ومحاربة النفوس الشريرة، وإن الصوفي من الواجب عليه أن يكون فقيهاً

في أمور الدين، وإيجاد الحكمة بالأحكام الشرعية، وتعليم الناس بالعلوم الإسلامية ويقدم

تعاليمه بالبراهين والأدلة الواردة في الكتاب والسنة.

وسئل الشيخ عبدالقادر الجيلاني عن التصوف فقال: "صوفي على وزن فوعلى، مأخوذ

من المصافاه، يعني عبداً صافاه الحق - عز وجل -، ولهذا قيل: الصوفي من كان صافياً من

آفات النفس، خالياً من مذموماتها، سالماً لحميد المذاهب ملازماً للحقائق، غير ساكن بقلبه

إلى أحد من الخلائق"².

ويستخلص من قول الشيخ عبدالقادر الجيلاني، أن التصوف هو السبيل إلى اتباع الحق،

وترك الدنيا وملذاتها، والعمل في ما يرضي الله سبحانه وتعالى، والبرء لا يكون صوفياً إذا لم

يجتهد في طاعة الله، والتخلص من كل آفات النفوس، والصوفي هو من كان قلبه صافياً حقاً،

1 -عبدالقادر عيسى رحمه الله تعالى. بدون سنة النشر. حقائق عن التصوف: (القاهرة - مصر). مكتبة الأزهر للطباعة والنشر والتوزيع.

ص 4.

2 - عبدالقادر أبي صالح الجيلاني. 1996م. الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل. تحقيق محمد خالد عمر: (بيروت - لبنان). دار احياء

التراث العربي. الطبعة الأولى. ص 442.

ولا يرضى بأداء كافة البشر، ويصاحبه الحق أينما وجد ويعمل بأفضل الأعمال ويتخلق بالأخلاق الفاضلة .

وأما الشيخ عبدالمحمود الحفيان وصف التصوف الإسلامي بأنه: "منهج سلوكي تربوي على طريق الحق بصدق تتم به مكارم الأخلاق، وينقدح في قلوب سالكيه من أنوار العلوم وحقائق الوجود ومظاهر التجلي الإلهي ما يجعل للسالك فرقاناً في حياته"¹.

ويقول جمال الدين أبو العباس أحمد بن فهد الحلبي: إن التصوف يعني أولاً "الانقطاع إلى الله في كهف جبل، أو ظل مسجد، أو زاوية بيت، وقد يقال العزلة من الناس، والوحشة من الخلق، والاستئناس بالحق، ولا يتهيأ ذلك إلا لمن قرت نفسه على هجر فضول الدنيا ومشتهاياتها، والثاني: التوفيق على المنقول عن الأئمة أقطاب التصوف من أقوال مفيدة، والثالث: تعلم الإشارات"².

ويستنتج من تعريف جمال الدين أبي العباس أن التصوف الإسلامي له قواعد وأساسيات لكي يصبح الإنسان صوفياً، انطلاقاً من الانقطاع إلى طاعة الله تعالى، والتهجد في أي مكان للعبادة، سواء كان في المسجد أو في زاوية أو خلوة، كما كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يتعبد في غار حراء منفرداً، ثم يرجع إلى بيته ويستمر في التهجد مع زوجته

1 - الشيخ عبدالمحمود الحفيان بن الشيخ الجليلي. مرجع سابق. ص 220.

2 - عبدالمعظم الحفني. 2006 م. الموسوعة الصوفية الكتاب الشامل لأعلام التصوف والمنكرين له: (القاهرة - مصر). الناشر مكتبة مدبولي. الطبعة الخامسة. ص 210.

خديجة حتى مطلع الفجر . ويضيف جمال الدين أنه ينبغي أن يكون الصوفي مدركاً بأمور التصوف والفقهاء الإسلامي، أي أنه يكون متلقياً على يد أئمة التصوف من أقوال مفيدة وتربية إسلامية، كذلك على من يريد أن يكون صوفياً بعد ذلك أن يتعلم إشارات الصوفية.

ويقول أبو الحسين أحمد بن محمد النوري " الصوفي لا يملك ولا يملك، أي الصوفي هو الذي لا يدعي لنفسه شيئاً مادياً أو معنوياً، وألا يكون مستعبداً لشيء مادي أو معنوي في هذه الحياة، وإنما العبودية الحققة هي لله وحده، وهو تعريف قريب من قوله : الصوفي من لا يتعلق به شيء ولا يتعلق بشيء".

فخلاصة التعريف الذي قدمه أبو الحسين النوري هو أن الصوفية هي باب العلم والاجتهاد، وأن يكون الإنسان عبداً شكوراً لله تعالى، وأن تكون عبوديته لله وحده دون غيره، والحكم في كل أمور الدنيا بالشرعة الإسلامية والسنة المحمدية، وتطبيق الشريعة الإسلامية في حقيقتها دون التهاون فيها، والنظر في حقيقة الدين.

قال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: "التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية"².

1- حمد جلال شرف. 1404هـ 1984م. دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب: (بيروت - لبنان). دار النهضة العربية. ص 199.

2 - زين الدين الحافظ زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري الشافعي. الرسالة التفسيرية: (بيروت - لبنان). منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة. ص 4.

ويستخلص من هذا التعريف أن التصوف علم من العلوم الإسلامية قائم بذاته،
والقصد منه تزكية النفس من كل الشرور، وتصفية الأخلاق الظاهرة والباطنة للصوفي، والصوفي
لا بد أن يتحلى بالأخلاق الحميدة التي يختص بها أمام سائر البشر.

وسئل أبو محمد الجريدي (ت 331هـ) عن التصوف " فقال: الدخول في كل خلق سني
والخروج من خلق ديني، فإذا عرف هذا المعنى في التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها
واعتبر حقيقتها، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر وقبل نهاية الفقر مع شرفه هو بداية
التصوف" ¹

ويرى أبو محمد الجريدي أن التصوف مسألة مهمة في العلوم الشرعية الإسلامية، لأن
التصوف هو أخلاق، وتربية النفس، والابتعاد عن كل الشرور والشدائد والمحرمات، وكل صوفي
يحمل أخلاق رفيعة أمام الله وخلقته.

ويتطرق أبو الحسين النوري (ت 265هـ) لتعريف الصوفية فيقول " ليس التصوف علماً
ولا رسماً، ولكنه خلق، لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعليم،
ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم، أو رسم" ².

1- الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى في سنة 505 هـ. بدون سنة النشر. ملحق إحياء علوم الدين: (بيروت - لبنان). دار
الندوة الجديدة. ص 62.

2 - عرفان عبد الحميد فتاح. . 1413 هـ 1993م. نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها: (بيروت - لبنان). دار الجليل للطباعة والنشر
والتوزيع. الطبعة الأولى. ص 136.

والتصوف عند أبي الحسن النوري أخلاق حميدة، ويعلل ذلك بقوله : إذا كان علما
لحصل بالتعليم عبر مراحل معينة، وإذا كان رسماً لحصل بالمجاهدة، لأن الأخلاق تتطلب قولاً
وفعلاً ظاهراً وباطناً، ولا يستطيع أن يكتسبها الإنسان إذا لم يتبع الأخلاق الإلهية التي أمرنا
الله باتباعها.

ويقول الشيخ عبدالوهاب الشعراي: "إن علم التصوف عبارة عن علم انقذح في قلوب
الأولياء، حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بهما انقذح له من ذلك
علم، وأدب، وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها. فالتصوف إنما هو خلاصة عمل العبد
بأحكام الشريعة، فمن جعل علم التصوف علماً مستقلاً صدق، ومن جعله من عين أحكام
الشريعة صدق"¹.

ويفهم من قول الشيخ عبدالوهاب الشعراي أن التصوف منارة لقلوب الأولياء التي
استنارت بالكتاب والسنة، فهو إذن علم شرعي، وله آدابه. وفهم التصوف يستلزم معرفة
أسراره وحقائقه، فالتصوف هو نتاج عمل العبد بأحكام الشريعة الإسلامية، وكان قدوة في
إتباع السنة، التي هي علم مستقل بذاته.

ويقول حجة الإسلام. الإمام الغزالي. الصوفي الصادق أن يكون له "قلة الإشارة، وترك
الشطح في العبارة، والتمسك بعلم الشريعة، ودوام الكد، واستعمال الجهد، والاستيحاش من

1 - عبدالوهاب الشعراي. 1414هـ 1993م. الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية. حققه وقدم له طه عبدالباقي سرور والسيد محمد
عبد الشافعي: (بيروت - لبنان). مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. ص 7.

الناس، وترك الشهرة في اللباس، وإظهار التجمل، واستشعار التوكل، واختيار الفقر، ودوام الذكر، وكتمان المحبة، وحسن العشرة في الصحبة، والغض عن المردان، وترك مؤاخاة النسوان، ودوام درس القرآن"1.

وكذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي التصوف هو "قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الحبيثة حتى يتوصل بها إلى تحلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله"2.

أبو حامد الغزالي في تعريفه للصوفية يرى أنهم أناس عرفوا طريق التقرب إلى الله تعالى، ويتمتعون بسيرة طيبة وحسنة عن سائر الخلق، ويتميزون بالأخلاق الرفيعة، ودرسوا العلوم الفقهية، ليصلوا إلى مبتغاهم، ويكونوا قدوة في أمور أسرار الشرع ظاهراً وباطناً، ونور مشكاة من النبوة، التي ليس وراءها نور يستضاء به على وجه الأرض.

ويعرف التصوف بأنه "هو التماس الحق عن طريق تطهير النفس التي تلوثت بأدران المادة عند حلولها في الجسد، بعد أن كانت طاهرة شريفة، وإعدادها لقبوله بالإلهام الإلهي، ولا سبيل إلى عودتها طاهرة إلا بقهر الجسد وإذلاله، وحرمانه من شهواته ورغباته الدنيوية، وذلك

1 - رفيق العجم. 2000م. موسوعة مصطلحات الإمام الغزالي: (بيروت - لبنان). مكتبة لبنان ناشرون. للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. ص 27.

2 - أبي حامد الغزالي. المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال. تحقيق جميل صليبي وكامل عياد: (بيروت - لبنان). مطبعة دار الأندلس للنشر والتوزيع. الطبعة السابعة. ص 100.

بالانقطاع إلى العبادة، وممارسة الصلاة، والتقشف، فإذا تم لها ذلك سموت نحو الله، واقتبست منه المعرفة الحقيقية، وسلكت طريق الحق"¹.

ويفهم من التعريف أن التصوف هو الوقوف على الحق، عن طريق تطهير النفس البشرية، التي كانت خالية من أدران المادة قبل حلولها في الجسد البشري، ولا يمكن عودة النفس إلى طبيعتها إلا بعد ممارسة العبادة، والتغلب على كل الرغبات الدنيوية التي تفسد النفس، والوهل في الدنيا، والحفاظ على الصلاة التي تقرب العبد إلى ربه، وإقامة الشعائر الدينية في الزوايا والمساجد وغيرها من أماكن العبادة، وإتباع السنة النبوية في التقشف، إلى أن إلى تصل المعرفة الحقيقية والسالك إلى طريق الحق.

وهناك من يعرف التصوف بأنه "انتقاء مجموعة من الناس، لمجموعة من ألوان العبادات، تشتمل على أصول الدين وبعض فروعها، لقرنها من بنائهم النفسي، وإعجابهم بشخصية قدوة في السلوك، محاولين رسم منهجه والافتداه به، رضاء بإمامتها لهم، وإماراتها عليهم والتصوف اختيار الرجل للتقرب لله، بترك الرذائل والتمسك بالشمائل، والتمسك بالفضائل، والتشبث بالرقائق والوسائل"².

1 - إميل ناصيف. بدون سنة النشر. أروع ما قيل في الزهد والتصوف. (بيروت - لبنان). الناشر دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع. ص 97.

2 - عبدالرحمن أحمد عثمان. رمضان 1425 هـ 2004م. الصوفية بالسودان مصدات ثقافية، وأوعية للعمل الاجتماعي: (الخرطوم- السودان). طبع بدار جامعة إفريقيا العالمية. ص 3.

ويستنتج من هذا المفهوم أن مجموعة من الناس أدركوا وفهموا نوعاً من أنواع العبادة، وتشربوا بها، وترسموا منهجها واقتدوا بها، وجعلوها مراتب الوصول لطريق السالك لله وحده وربطه بمولاه في كل فكر وقول وعمل، والالتزام بالتقوى والعبودية ومعاملة الله بحسن العبادة، ومعاملة العباد بحسن الخلق، كما يفهم من التعريف أن للصوفية علماء ومشايخ، فلا بد للصوفي أن تكون له شخصية تتمتع بسلوك حسن وقدوة لإنارة الطريق الصوفي، والحفاظ على النفس من الذائل، والتمسك بالأعمال الصالحة.

ويقول أبو الحسن الجرجاني (ت 816 هـ 1413 م) "الصوفية اتباع المذهب الصوفي الروحي، وكله جد غير مشوب بالهزل، هو تصفية القلب من معاشره الناس، والابتعاد عن الأخلاق الطبيعية، وقمع الصفات البشرية، والاجتناب عن الدعاوي النفسانية، واتخاذ الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو الأولى للسرمدية، ومواساة الأمة في غمها، والوفاء لله في الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة"¹.

الجرجاني في تعريفه للصوفية يضع الصوفية مذهباً روحياً لتهديب النفس البشرية من الآفات، ويقول إن الصوفي تتوفر فيه عدد من الصفات، وليس فقط بدخول المذهب الصوفي، ومن هذه الصفات تصفية القلوب لله والعبادة، وحسن معاشره الناس، والابتعاد عن الأخلاق والصفات المنكرة، وغرس الصفات الروحانية في النفس، والتمسك بالعلوم الحقيقية، والوفاء لله.

1 - جميل مدبك. 2000م. موسوعة الأديان في العالم. الفرق الإسلامية: (بيروت - لبنان). مؤسسة علي سعد للطباعة والنشر والتوزيع. ص 173.

ويقول العارف بالله الشيخ إبراهيم بن عبدالله التجاني "اعلم أن هذا التصوف علم ليس هو المنطوق باللسان، وإنما هو أذواق ووجدان، ولا يؤخذ من الأوراق، وإنما يؤخذ من أهل الأذواق، وليس ينال بالقليل والقال، وإنما يؤخذ من خدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، ويقول لا سبيل إلى هذا بدون مصاحبة شيخ مرشد كامل"¹.

والتصوفية هم الذين انقطعوا لله، وداوموا على ذكره، ولم تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكره، وقد كانوا في صدر الإسلام يعرفون بأهل الصفة، وهم فقراء الصحابة لم يتخذوا منازل يسكنون فيها، وإنما آووا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن جاءهم شيء من الطعام أكلوا وشكروا، وإلا فصاموا وصبروا، وإن دعا مؤذن الجهاد نفروا خفافاً، فهم الذين سلكوا بالمسلمين نهج التصوف الرباني، وأعطوا المثل الحي والقُدوة الصالحة، تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق الرجعى إلى الله جل وعلا وكان عددهم يربو عن السبعين صحابياً رضوان الله عليهم أجمعين"².

المطلب الثالث : نشأة التصوف الإسلامي

1 - الفاتح النور. نوفمبر 1997م. التجانية والمستقبل: (الخرطوم - السودان). دار كردفان للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ص 342.

2 - الطيب عبدالله أحمد أبو حيقه. فبراير 2007م. الرفقة الحسنة سياحة: (الخرطوم - السودان). شركة مطابع السودان للعملة المحدودة للطباعة والنشر والتوزيع. ص 13.

لقد انقسم المؤرخون والدارسون والمستشرقون حول جذور نشأة التصوف الإسلامي ومدى أصالته وانتمائه للشريعة الإسلامية، وتوجد ثلاثة آراء، فالرأي الأول يقول إن التصوف الإسلامي أصوله مستمدة من نصوص القرآن الكريم والسنة المحمدية وهو من ضمن ركائز الحفاظ على الشريعة الإسلامية ونشرها في كثير من أصقاع العالم، والرأي الثاني يرى أن التصوف ليس إسلامي النشأة، وإنما هو جسم غريب على البيئة الإسلامية، جاء نتيجة لتأثيرات ثقافات خارجية على المسلمين، كالفرس والهنود واليونان وغيرهم من الجماعات المسيحية، والرأي الثالث يقول إن التصوف الإسلامي هو إسلامي النشأة، ومنبته من الشريعة الإسلامية، وهذا ما أكدته العديد من العلماء والشيوخ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وحجة الإسلام أحمد الغزالي رحمه الله وكان خالي من كل الشوائب والانحرافات في بداية بروزه، ثم انخرقت به بعض الطوائف التي تدعي الصوفية إلى طرق أخرى تتنافى مع الشريعة الإسلامية، أبعدت التصوف عن أصله الإسلامي.

إن التصوف لم يكن متداولاً بهذا الاسم في بداية ظهور الدين الإسلامي الحنيف، حيث بدأ يشتهر بهذا الاسم الشائع في العلوم الإسلامية في القرن الثاني أو الثالث الهجري تقريباً، حيث كان يطلق عليهم في القرن الأول الزهاد والعباد والفقراء ونحو ذلك، وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن التصوف الإسلامي فقال: " إنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة

والشيخ : كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري، وتنازعا في المعنى الذي أضيف إليه الصوفي، فإنه من أسماء النسب: كالقرشي والمدني"¹.

ويقول حجة الاسلام الامام الغزالي رحمة الله أن التصوف علم الباطن. وروى الحسن عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : العلم علمان : فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع². وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى، يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا"³. وقد قال صلى الله عليه وسلم : قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم"⁴. وقوله: (قد كان يكون في الأمم محدثون) هم الملهمون، والملهم من يلقى في نفسه شئ فيخبر به حدسا وفراسة، وهو نور يخص الله تعالى به من يشاء من عباده الذين اصطفاهم، كعمر⁵.

1 - شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. مجموع فتاوى. مرجع سابق. ص 6.

2 - سنن الدارمي. كتاب المقدمة. باب العلم علمان.

3 - الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى في سنة 505 هجرية. 1412 هـ 1992 م. إحياء علوم الدين. تحقيق أبي حفص سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران: (القاهرة). دار الحديث للنشر والتوزيع والطباعة. الجزء الثالث. الطبعة الأولى. ص 39.

4 - الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج المتوفى 261 هـ. 1418 هـ 1998 م. صحيح مسلم: (بيروت - لبنان). دار الكتب العلمية. كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عمر رضي الله عنه. الجزء الرابع. الطبعة الأولى. ص 80.

5 - أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي. 1419 هـ 1999 م. سنن الترمذي: (القاهرة - مصر). دار الحديث. الجزء الخامس. الطبعة الأولى. ص 441.

وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينقسم أصحابه إلى الفقهاء والمحدثين والمفسرين والزهاد وغيرها، وإنما أخذت بعد صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم التابعين، وبعدهم تابع التابعين رضوان الله عليهم أجمعين . ويقول أبو القاسم القشيري "اعلموا رحمكم الله تعالى، أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم، سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ لا فضيلة فوقها، فقليل لهم الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة بالتابعين، ورأى في ذلك أشرف سمعة، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقليل لخواص الناس ممن لهم شدة عنية بأمر الدين بالزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعى أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المرعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة¹.

وبعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية وانغمس بعض المسلمين في ألوان الحضارات ودروب من الترف تغريهم وتفتنهم، ولم يكن ذلك يتماشى مع الدين الإسلامي ولا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، فكان لا بد أن يكون لذلك رد فعل، وكان أهم مظاهر رد الفعل هذا ظهور التصوف، لأن "الخصومات السياسية التي قامت حول الخلافة وأدت إلى الفتن والحروب بين المسلمين، كمعركة الجمل وصفين، بعد أن كان

1 - الإمام أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري. مرجع سابق. ص 21.

المسلمون في العهد الراشدي متحدين، وخلفاؤهم متقشفين لا تستهويهم مفاتن الدنيا وزخارف الحياة.

أما في العهدين: الأموي والعباسي فقد انهمكت الخلافة في الملذات، مما أدى إلى رد الفعل عند الورعين، فراحوا ينشدون المثل العليا الإسلامية في الزهد والإعراض عن الدنيا، وقد تأججت حرارة الإيمان في نفوسهم، بقدر ما ازداد العبث والمجون عند سواهم، فأصبحت المدينة العباسية مسجداً وحانة، وقارئاً وزامراً، ومجتهد يرقب الفجر ومصطبحة في الحدائق، وساهرا في تهجد، وساهرا في طرب، وتخمّة من غنى، ومسكنة في إملاق، وإيمانا في يقين، وشكا في دين"¹.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن نشأة التصوف الإسلامي: "أول ما ظهرت الصوفية في البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبدالواحد بن زيد وعبدالواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك، ما لم يكن سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي، وعبادة بصرية وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين: أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف، فقال:

1 - إميل ناصيف. مرجع سابق. ص 100.

وغنى قوماً يتخيرون الصوف يقولون : إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم، وهدي نبينا أحب إلينا، وكان النبي . صلى الله عليه وسلم . يلبس القطن وغيره"¹.

إذن نشأ التصوف الإسلامي للحاجة إليه وتعبيراً عن الفساد المستشري والأوضاع الاجتماعية القائمة، وثورة الوجدان الداخلي لدى بعض المسلمين، وظهر وانتشر في مدن بلغت ذروة التحضّر والترف، مثل دمشق وبغداد ومصر ومدن الأندلس إبان ازدهارها، ويرى أبو العلا عفيفي رحمه الله في كتابه التصوف: الثورة الروحية في الإسلام، "أن المسلمين عندما اتسعت فتوحاتهم وكثرت غنائمهم أقبل الكثيرون منهم على الدنيا، فقامت في نفوس أتقياءهم ثورة نفسية، جعلتهم يقابلون ذلك بالفرار من الدنيا، ورياضة النفس على الطاعات، كما اعتبر التصوف طريقاً من طرق العبادة، يتناول أحكام الدين من ناحية معانيها الباطنة وآثارها في القلوب، وكان ذلك في مقابل علم الفقه الذي يتناول أحكامه على الجوارح الظاهرة، وأنه أصبح طريقاً لتصفية النفس وتحصيل المعرفة في مقابل أهل النظر والمتكلمين"².

وقد تحدث ابن خلدون عن نشوء علم التصوف قائلاً: "هذا العلم من العلوم الشرعية الحديثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف، على العبادة والانقطاع إلى الله

1 - شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. مجموع فتاوى. مرجع سابق. ص 7.

2 - محمود حمدي زقزوق. 1428هـ/2007م. موسوعة الفرق والمذاهب في العالم الإسلامي. (القاهرة). مطابع الأهرام التجارية قليوب.

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة (6). ص 467.

تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، كان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشى الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة¹.

وترجع نشأة التصوف الإسلامي كما ذكرنا سلفاً، عندما جاء عصر الفتوح والتكالب على الأمور الدنيوية، والابتعاد عن الدين الإسلامي، فبذلك إن التصوف الإسلامي، "قد نشأ في كنف الإسلام، وبقاؤهم في أحضانه، وشب وترعرع في تربته، واستمد أصول وجوده من منبعه الصافي، وأن الصوفيين الصادقين المخلصين قد أقاموا مذهبهم على أصول الإسلام، وتعاليمه وتوجيهاته و الاستمسك بأدبه وأخلاقه، التي لخصها الصوفي الكبير الإمام الجنيد سيد القوم وشيخهم، حين عرف التصوف تعريفاً لا يدع قولاً لقاتل، من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة"².

وأخيراً يقول بروفيسور عمر يوسف حمزة عميد كلية أصول الدين بجامعة أم درمان الإسلامية عن نشأة التصوف الإسلامي "إن التصوف له جذور إسلامية أصيلة لا تجحد، وفيه عناصر إسلامية أساسية لا تخفى، نرى ذلك في القرآن الكريم والسنة وسيرة الرسول صلى

1 - العلامة عبدالرحمن ابن خلدون المغربي. 1420هـ 1999م. تاريخ العلامة ابن خلدون: (بيروت - لبنان). دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع. المجلد الأول. ص 863.

2 - صلاح مؤيد العقبي. 2002م. الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها: (بيروت - لبنان). دار البراق للطباعة والنشر والتوزيع. ص 38.

الله عليه وسلم وأصحابه الزاهدين، مثل عمر وعلي وأبي الدرداء وسليمان الفارسي وأبي ذر وغيرهم رضي الله عنهم، ومن يقرأ القرآن والحديث يجد فيهما تحذيراً متكرراً من فتنة الحياة الدنيا ومتاعها، وتوجيه الهمم إلى الله وإلى دار الآخرة، وتحريك القلوب بالتشوق إلى الجنة وما فيها من نعيم مادي ومعنوي، كما يجد الحديث عن حب الله تعالى لعباده وحبهم له سبحانه¹.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

1 - عبد الحميد محمد أحمد. محرم 1429هـ - يناير 2008م. الفيض للشريعة والطريقة والحقيقة: (الخرطوم - السودان). مجلة شهرية يصدرها المجلس القومي للذكر والذاكرين. العدد (19). ص 40.

المبحث الثاني : نشأة الطرق الصوفية، وأهميتها

المطلب الأول: نشأة الطرق الصوفية.

لقد كان التصوف الإسلامي طريق من طرق العبادة والتقرب إلى الله تعالى تضرعا وخيفة، والطريق هو سبيل المتصوفة في بدايته، وعندما كان يغلب عليه الطابع الفردي ولم يؤسس بشكل جماعي، واستمرت الصوفية الفردية طيلة السنوات الأولى، واشتهر بها أبرز مشايخ الصوفية؛ كالحسن البصري وحجة الإسلام الإمام الغزالي رحمهما الله تعالى وغيرهما . وبعد مما أن انتشرت الصوفية وكثر مريدوها في كثير من الدول الإسلامية، حيث أطلقت على الجماعة الصوفية التي تعظم حول شيخ من المشايخ باسم الطرق الصوفية، والتي غالباً ما تسمى باسم مؤسسها، وأحياناً تسمى باسم خاص، حيث انقسمت الصوفية إلى طوائف وطرق عدة، كل طريقة لها شيخها ومريدوها، وتتبع منهج وأسلوب للسالك بها إلى طريق الحق، وتتميز عن بعضها في الأذكار والأوزاد واللباس وغيرها، من خصائص الطرق الصوفية.

ويقول الأستاذ جمال بدوي: أن الطرق الصوفية قد بدأ ظهورها، منذ القرن السادس الهجري، وارتبط هذا الظهور بحدثين من أهم الأحداث التي تعرض لها العالم الإسلامي، وهما: سقوط الأندلس، واندلاع الحروب الصليبية¹. وتابع فيقول: وشهدت قنا أول بيت للصوفية في مصر على يد الشيخ عبدالرحيم الذي ولد في المغرب الأقصى عام 521هـ ثم عاش في قنا

1 - سميح عاطف الزين. 1413هـ 1993م. الصوفية في نظر الإسلام دراسة وتحليل: (بيروت - لبنان). دار الكتاب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الرابعة. ص 541.

ومات بها سنة 592هـ وفي العصر الأيوبي حرص السلطان صلاح الدين على تدعيم الحركة الصوفية لما كانت تمثله من نزعة روحية وتربوية، فأقام أول تنظيم رئاسي للطرق الصوفية في مصر، وهي (الخانقاه) التي أطلق عليها اسم (سعيد السعداء)، ولا يزال اسمها مرسوماً على إحدى المدارس بحي الجمالية¹

والطرق الصوفية هي طرق سنية، ومستوحاة من الشريعة المحمدية، كما يقول الكثير من مشايخ المتصوفة وغيرهم من الباحثين والدارسين، وذلك رداً على بعض الشكوك على أن الطرق الصوفية لا علاقة لها بالإسلام، وأنها فرق أجنبية دخيلة أتت للإسلام من الفرس والهنود وغيرهم من الشعوب، وفي ذلك يقول الإمام الشعراي في كتاب لواقح الأنوار القدسية: إياك أن تقول إن طرق الصوفية لم يأت بها كتاب ولا سنة فإنها أخلاق محمدية².

فمصطلح الطريقة عند المتصوفة "بمعنى السيرة المختصة بالسالكين إلى الله، والمرتقين في المقامات، وهو منهج حياة روحية، يمكن التوصل معها من خلال النية الصحيحة والمجاهدات الروحية والرياضة النفسية لمعرفة الله سبحانه وتعالى، أي أن المعنى الصوفي للطريقة هو سيرة

1 - المرجع نفسه. ص 544.

2 - بدون اسم المؤلف. 1423هـ 2002م. التشرف بذكر أهل التصوف: (بيروت - لبنان). دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع.

الطبعة الأولى. ص 23.

خاصة بأحد السالكين إلى الله والمرتقين في مقاماتهم في هذا الطريق، بمنهج خاص يحتوي على مجاهدات حركية ونفسية ليصلوا لمعرفة الله¹.

وفي رؤية أخرى للطريقة عند الصوفية "هي السيرة المختصة بالمتصوفة السالكين إلى الله، فهي سفر إلى الله تعالى، والسالك أو المريد هو المسافر، فعلى المسافر أن يسلك طريق القوم، وأن يختارها مرحلة بعد مرحلة، أما من أدركته عناية الله فجذبته العناية إلى الله جذباً، فهذا ما يسمونه بالجنوب الذي طويت له الطريق طياً في سفر خاطف بفضل الله ومنتته"².

والطرق الصوفية كما يراها كارادي "هي التعبير المنظم عن التصوف الإسلامي بعد أن ظل قروناً طويلة يقوم على الأفراد، وأن هذه الطرق التي لها طبيعة الهيئات الدائمة التي تحتفظ بنظام خاص وعبارات خاصة، ويجمعها اسم معلوم، لم تنشأ إلا في القرن السادس الهجري في الحقبة المضطربة من تاريخ الإسلام التي عمقت فيها أوصال الدولة السلجوقية، وكانت أول طريقة بهذا المفهوم لها أصل معلوم ولا تظل باقية حتى الآن هي الطريقة القادرية، التي أنشأها عبدالقادر الجيلاني المتوفى سنة 561هـ³.

- 1 - حنان أحمد مكايي سليمان. 2008م. الصوفية والنظام السياسي في السودان. دراسات فكرية في التصوف بالسودان أوراق وتوصيات المؤتمر الأول للدراسات الفكرية للتصوف في السودان: (الخرطوم - السودان). دار عزة للنشر والتوزيع. ص 200.
- 2 - عامر النجار. 1990م. الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها: (القاهرة - مصر). الناشر دار المعارف. الطبعة الرابعة. ص 18.
- 3 - حمد بركات البيلي. 1993م. الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري: (القاهرة - مصر). الناشر دار النهضة العربية. ص 48 ص 49.

وتقول الأستاذة حنان أحمد: أن مفهوم "الطريقة عند المتأخرين تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية، ينسبون لشيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي ويحيون حياة جماعية أو يجتمعون دوريا في مناسبات معينة، ويعقدون مجالس العلم والذكر ويتلقى المريد البيعة من شيخ السجادة أو المرشد وهو المقدم أو النقيب أو الخليفة. أمام شهود، وهي عهد بين المريد والشيخ على التوبة والاستقامة والدخول في ذكر الله والعمل بأصول الطريقة، والقيام بأوراد وأحزاب الشيخ في المواعيد التي يحددها"¹.

وقد أخذت الطرق الصوفية هياكل تنظيمية على شكل هرمي، تحدد العلاقة الداخلية بين الشيخ ومريديه، وكيفية تلقين المريد، أثناء رغبته للدخول في طريقة ما، ويقول الشيخ ابن عربي "لا بد للمريد في طريقة ابن عربي من أن يتلقى عن شيخ، ويقول ابن عربي: من لا شيخ له فإن شيخه الشيطان، وشرط الشيخ أن يكون مجازا من شيخ آخر، وان يكون عالما، وأن يكون مؤدبا، متشددا، يتجنب كل ألفة بينه وبين المريد، وأن يطلب منه الطاعة التامة، كي تتمحي إرادته في إرادته، ويأخذ المريد العهد على الشيخ، ولا يلتزم بهاس معين، ولا يوصى ابن عربي إلا بأن يكون قماشة لباس المريد من النوع الزهيد، وألا يفيد إلا في ستر العورة مع الحشمة، وأن يكون قصيرا، وإذا قبل المريد بالجماعة خضع لسلطة الشيخ المطلقة، ويلزم الخلوة لا ييارحها إلا بإذن من الشيخ، ولا يتصل المريدون ببعض إلا في حضوره، وإذا خرجوا

1 - حنان أحمد مكاوي سليمان. مرجع سابق. ص 201.

جماعات ذاكرين الله، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، ولا إلى الورا، ويجتمعون للصلاة والطعام والنوم والذكر وإنشاد الأشعار الصوفية"¹.

المريد عند ابن خلدون "لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة، وتلك الحالة إما أن تكون عبادة، فترسخ وتصير مقاماً للمريد، وإما أن لا تكون عبادة، وإنما تكون صفة حاصلة للنفس، من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل، أو غير ذلك من المقامات، ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة، التي هي الغاية المطلوبة للسعادة، فالمريد لا بد له من الترقى في هذه الأطوار، وأصلها كلها الطاعة والإخلاص، ويتقدمها الإيمان وبصاحبها، وتنشأ عنها الأحوال والصفات نتائج وثمرات، ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان"².

ويقول سهل بن عبدالله: أول ما يؤمر به المريد البري من الحركات المذمومة، ثم التنقل إلى الحركات المحمودة، ثم التفرد لأمر الله، ثم التوقف، ثم الرشاد، ثم الفناء، ثم البيان، ثم الشناء، ثم القرب، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاتة، ولا يستقر هذا بقلبه حتى يرجع إلى إيمانه، فيكون العلم والقدرة زاده، والرضى والتسليم مراده، والتفويض والتوكل حاله، ثم يمن الله بعد

1 - عبد المنعم الحفني. معجم مصطلحات الصوفية. مرجع سابق. ص 492.

2 - الإمام عبدالرحمن بن محمد بن خلدون. مرجع سابق. ص 450.

هذا بالمعرفة فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة، وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام¹.

وتعددت الطرق الصوفية وانتشرت في أنحاء العالم وربما يصعب حصرها، وتتفق الطرق الصوفية مع بعضها البعض في الجانب التنظيمي أو الهرمي للطريقة، فلا بد من وجود شيخ ومريدين لكل طريقة، وكل مريد لابد أن يمر بمراحل حتى يقبل بشكل نهائي في إحدى الطرق الصوفية، إلا أنها تختلف عن بعضها في الأوراد والأذكار، ويتأس كل طريقة الشيخ الذي يعتبر منصباً مؤسسياً أو وراثياً.

حيث شهدت الطرق الصوفية تزايداً أكثر في القرنين الخامس والسادس الهجري تقريباً، ثم أنشئت زوايا الطرق الصوفية كمراكز للعلم والعبادة وتقام فيها الشعائر الدينية، وتعد الزوايا الصوفية مركز لقاء الأفراد والجماعات، لتلاوة القرآن الكريم، وإقامة الأذكار وتلقي تدريس العلوم والمعارف والأخلاق والتربية الإسلامية، وكان كل شيخ يتخذ زاوية أو منارة في أحد المساجد لتدريس العلوم الشرعية عموماً، "وسبب نشوء هذه الروابط والزوايا الروحية الصوفية عموماً، هو أنه لما تنوعت المشارب الإسلامية، وتعددت طرق العمل، ودونت العلوم الشرعية، وتخصص كل قوم في مجال من مجالات التشريع الإسلامي، تخصص القوم الصالحون

1 - الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى 911هـ. 1427هـ. 2006م. تأييد الحقيقة العلمية وتنشيد الطريقة الشاذلية. تحقيق وتخريج وتعليق الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكتالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي: (بيروت). دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. ص 32.

في الجانب الروحي لرسالة الإسلام، وهو جانب التزكية والأخلاق المسمى بعلم التصوف، الذي يركز على مقام الإحسان، وهو القسم الثالث والأخير من أقسام الدين، فظهرت لذلك هذه الأماكن المخصصة للأعمال الروحية والتعبودية من أجل تربية الضمير والسمو الروحي"¹.

وتعددت الطرق الصوفية عبر الأزمنة و الأمكنة، تنوعا على مستوى الأساليب العملية، ومهما تعددت هذه الطرق الصوفية المبنية على الكتاب والسنة النبوية، فليست سوى طرق لمعرفة الإنسان ربه ويعبده بشكل فيه تذلل وخضوع ، ولممارسة حقوقه التعبودية وتزكية النفس يقول الشيخ محمد الحافظ المصري: "إن سبب تعدد الطرق أن كل شيخ واصل بإلهام من الله ويمدد من رسوله صلى الله عليه وسلم، يرى مثلا أن التقرب إلى الله أن يكثُر من تلاوة القرآن الكريم، بينما يرى شيخ واصل آخر أن أفضل ما في كتاب الله الكلمة المشرفة (لا إله إلا الله)، فجعلها أكثر عبادته لأنها ذكر وقرآن في آن واحد، وشيخ ثالث يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال من صلى علي صلاة علي صلى الله عليه بها عشراً، فيجعل أوراده الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والمشايخ واصلون بإسناد أن الذكر بالتسابيح والتكبير والاستغفار وكلها تخرج المرء من الظلمات إلى النور ومن هنا تعددت الأذكار"².

1 - السيد المرابط بن عبدالرحمن الأبييري. 1428هـ 2007م. الفرق الإسلامية بين القلم والحديث: (الدار البيضاء - المملكة المغربية). مركز التراث الثقافي المغربي. ص 151.
2 - المرجع نفسه. ص 155.

المطلب الثاني: أهمية الطرق الصوفية

لقد كان لمشايخ الطرق الصوفية دور بارز ومهم في خدمة الإسلام ونشر الدعوة الإسلامية في مختلف قارات العالم من أدناها إلى أقصاها، حيث عملوا على نشر الثقافة الإسلامية وبت تعاليمه السامية، وكانوا أول من رفع لواء الجهاد ضد الصليبيين والنصارى من أجل نشر الإسلام وحمائته، "فمنذ القرن الثاني الهجري رفع أهل الصوفية راية الثورة ضد الباطل وأهله في كل مكان، حتى نشروا الإسلام ونجحوا في نشر اللغة العربية لغة القرآن وفي غرس الفضيلة في نفوس الشعوب التي هداها الله إلى الإسلام، بجهودهم وجهادهم ورباطهم، الذي تحطمت عليه كافة المغريات والمكائد من أعداء الإسلام، أعداء الحق والعدالة أعداء الإنسانية، واضعين في رحلة الجهاد الصوفي نور قوله تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} ² .

والطرق الصوفية لها أهمية في بناء المجتمعات الإسلامية، والقدرة على مواجهة التحديات والصمود، سواء كانت تواجه الأوطان أو تمس عقيدتهم، دون الانغماس في الانحرافات الدينية التي قد تفسد المجتمعات، وتدخلها في دوامة العنف السياسي بين الأتقاء وأبناء الوطن الواحد، ناهيك عن دور الطرق الصوفية في الترويض على الطاعة وتهذيب النفوس .

1 - سورة العنكبوت الآية رقم 69.

2 - الشيخ إبراهيم صالح. بدون سنة نشر. التصوف الإسلامي في حماية مقومات بناء الأمة الإسلامية: (طرابلس - ليبيا). القيادة الشعبية

الإسلامية العالمية. ص 8.

يقول الشيخ محمد حسن الشناوي أحد مشايخ الطرق الصوفية بجمهورية مصر العربية "لقد استطاع التصوف أن ينشر الدعوة الإسلامية، وأن يجعلها عالمية دون سلاح ولا غزو، فهو الذي حمل نورها وهداها إلى إندونيسيا والفلبين والصين وقلب أفريقيا وغربها وجنوبها، بل أفريقيا عموماً، وهو الذي صمد في وجه التيارات الإلحادية والانحلالية في روسيا، وهو الذي وقف حصناً شامخاً يدافع عن الجماهير الإسلامية من وثنية التتار وعصبة الصليبيين، حتى أن الجبرتي ليحدثنا عن أن هزيمة الحملة الفرنسية على مصر إنما كانت على أيدي رجال المقاومة الشعبية من أبناء الطرق الصوفية وثنيوخها، وفي مقدمتهم سيدي أحمد البدوي وسيدي أبو الحسن الشاذلي"¹

ويقول الدكتور عبدالرحمن بلوي عن أهمية الطرق الصوفية في العالم الإسلامي : إن "انتشار الإسلام في السنغال ومالي والنيجر وغينيا وغانا ونيجيريا والتشاد، يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه إلى الطرق الصوفية، فكانت الزوايا والرباطات التي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية، بثرات لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غرب القارة الأفريقية وقلبها، ومرد هذا خصوصاً إلى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد، وعيشهم بين العامة والفقراء، مما أبدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى"².

1 - محمد حسن الشناوي. 2008م. التصوف دعوة وتربية. مجلة التواصل: طرابلس . تصدر عن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. العدد الخامس. ص 53.

2 - أسعد السحبراني. 1421هـ 2000م. التصوف منشؤه ومصطلحاته: (بيروت - لبنان). دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الثانية. ص 163.

إن أتباع الطرق الصوفية هم الذين تم على أيديهم إسلام القسم الأعظم من مسلمي أواسط إفريقيا، وكذلك للطرق الصوفية المنتظمة، دور هائل وكبير في نشر الدعوة الإسلامية في كثير من أصقاع العالم دون حروب وإراقة الدماء، فدخلوها مسلمين رافعين لواء السلام حاملين العقيدة الإسلامية، ومثالا لذلك ما حدث في الهند "إن الإسلام لم ينتشر في الهند بواسطة الحروب، بل انتشر بفضل الصوفية، والطرق الكبرى، وهي: الجشتية، والكبروية، والشطارية، والنقشبندية؛ وذلك لأن التوفيق الاجتماعي بين الظافرين والمقهورين لا يتم إلا بواسطة أولئك الذين يعطون ولا يطالبون ويقرضون ولا يأملون في شيء، وقد كان للتصوف الإسلامي في الهند الفضل في المصالحة بين الطوائف"¹.

ويضيف إلى ذلك حيث "يعزو الباحثون النجاح الذي حققته الطرق الصوفية، وإدخالها الملايين من الوثنيين في الإسلام، إلى اختلاط أصحابها والعاملين فيها بالطبقات الشعبية، والعيش مع العامة والظهور بمظاهر التقوى والصلاح، وكما يقول كوبولاين: إن هؤلاء الصوفية تارة في هيئة تجار وتارة في هيئة مبشرين، كانوا يهدون إلى الإسلام، ويبنون زوايا جديدة في تلك الأقطار الواسعة المنتشرة من شمال إفريقيا إلى أقصى أقاصي السودان"².

1 - عبدالرحمن بدوي. 1975م. تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني: (الكويت) الناشر وكالة المطبوعات. الطبعة الأولى. ص 25.

2 - سميح عاطف الزين. مرجع سابق. ص 541.

يقول رشيد رضا للتصوف أهمية كبرى في نشر التربية الإسلامية الصحيحة، المبنية على الكتاب والسنة والتأدب بالآداب المنصوصة فيهما، ويضيف رشيد رضا "وقد كان وما يزال لكتب الصوفية تأثير مهم في إقبال غير المسلمين على الدخول في هذا الدين، فكم من عالم اعتنق الإسلام بعد اطلاعه على كتب الصوفية ومدوناتهم، الأمر الذي دفع برشيد رضا إلى الإعلان بأن أغلب الداخلين في الإسلام كانوا من باب التصوف، لذلك كان رشيد رضا يهتم بكتب التصوف التي لا تتعارض مع الكتاب والسنة، مبينا فوائدها العامة في مجال التربية الخلقية والتهديية"¹.

وكذلك كان للطرق الصوفية دور كبير ومهم في الحياة الاجتماعية للمجتمعات الإسلامية، حيث تحث على العمل الجماعي ورفض التعصب والتطرف الديني، حتى أصبحت الطرق الصوفية حركة دينية اجتماعية تقوم على القيم الإسلامية، التي استند عليها التصوف الإسلامي، كما ارتبطت الطرق الصوفية بكافة أمور الناس بمختلف شرائحهم، دون التفريق بين غني وفقير، وكانوا يجوبون القرى كما كانوا يعايشون عامة الناس معايشة كاملة، ويشاركون الناس أفراحهم وأحزانهم، ويتلقون منهم تعاليم الفقه وتلاوة القرآن الكريم، في الأماكن المخصصة لهذا الغرض، كالزوايا والخللوي ومراكز تحفيظ القرآن الكريم، وبذلك أصبح دور أهل التصوف أوسع من خطباء المساجد الذين اقتصر دورهم على المساجد، "فالطرق

1 - عمر عبدالله كامل. 1422هـ - 2001م. كتاب بكتاب ورأي برأي التصوف بين الإفراط والتفريط: (بيروت - لبنان). دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. ص 164.

الصوفية هي في حقيقتها جامعات كبرى للتربية والتهديب والتعليم، وإعداد أتباعها إعداداً إيجابياً للنضال والجهاد في سبيل الله، للوصول إلى المثل العليا في الحياة فوق رسالتها الأصلية، وهي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وهداية المريدين إلى الصراط المستقيم، وإرشادهم إلى السلوك الموصل إلى رضوان الله سبحانه ومحبه بالذکر والعبادة، وتطهير القلب وتركية الجوارح ومكارم الأخلاق وخدمة المجتمع والحب للناس جميعاً، هذه الجامعات هي بحق أعرق الجامعات التربوية العالمية، وما أحسب أن جامعة من جامعات العلم في القديم والحديث اتسعت آفاقها وبرامجها كما اتسعت أفاق تلك الجامعات القومية، هذه الطرق هي جامعة القرآن، ومدرسة النبوة والمعهد العالي الذي ينبج للنديا الصورة المثالية للإنسان الكامل في دينه ودنياه"¹.

وبلغت مكانة المشايخ قمتها في بعض الدول العربية والإسلامية عندما أصبح لهم تأثير كبير في المجال الاجتماعي والسياسي، حيث لا يعترفون بالحدود السياسية بين الشعوب التي جاء بها الاستعمار، والتي فرقت ما بين الأوطان، وهي أوسع من النظرة الوطنية الضيقة بين الحدود؛ فالطرق الصوفية كظاهرة إسلامية اجتماعية هي إحدى الركائز للوحدة بين الشعوب، فنرى طريقة ما أصلها منبثق من دولة لكن مشايخها ومريدها في دولة أخرى يفوق بكثير العدد بالدولة الأم، ويتفاعل معها الناس من دول مختلفة لا رابط بينهم سوى الانتماء لطريقة معينة، وتجمعهم في المناسبات الخاصة بالطريقة.

1 - محمد حسن الشناوي. مرجع سابق. ص 52.

المبحث الثالث: التصوف الإسلامي بين القبول والرفض

المطلب الأول: آراء وأدلة المؤيدين للصوفية.

استند مؤيدوه هذا الرأي من العلماء والمشايخ والمختصين في الشأن الصوفي على أن التصوف الإسلامي يعد طريقاً من طرق العبادة لله تعالى والتقرب إليه، من خلال المنهج الديني البسيط والمتسامح، والأوراد الصوفية التي كلها تنطلق من وحدانية الله تعالى واتباع السنة المحمدية، فهو مرتبط بأصول الشريعة، بعيداً عن الرياضات العنيفة، والتصرفات الشاذة، التي كانت موجودة في التصوف الهندي أو الفارسي وغيرهما، فهو تصوف يقوم على أسس الدين الإسلامي بشقيه: الكتاب والسنة، ومن أهم مميزاته: التوحيد ثم التقشف والزهد والابتعاد عن المحرمات جميعها، مع حسن العبادة والسير في الطريق المستقيم، وكل هذه الصفات مترابطة متكاملة، وهذا ما كان يعرف في البدايات الأولى للإسلام بالورع والتقوى، فلم يكن لديهم هذا المعنى الموجود في لفظ التصوف الذي عرف بعد ذلك¹.

وكان أهل التصوف الأوائل من الصديقين الملتزمين بالشريعة الإسلامية واتباع السنة النبوية، المبتعدون عن التهاوت على الدنيا وملذاتها ومشاغلها، المتوجهين إلى الله وحده بالتعبد والتقشف والصبر ومحاربة النفس الشريرة، وذلك لأن المنبت الصوفي مستنبط من معاني القرآن

1 - عبدالمحسن سلطان. 1423هـ. 2003م. التصوف الإسلامي في مراحل تطوره: (القاهرة - مصر). دار الافاق العربية للنشر والتوزيع.

الكريم والسنة النبوية الشريفة، بمعنى " القرآن الكريم والسنة النبوية، هما المنابع الأصلية للتصوف الإسلامي في تلك المرحلة بالذات، قال الجنيد بن محمد علما هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن، ويكتب الحديث، لا يصلح له أن يتكلم بعلمنا، أي التصوف"¹.

فالتصوف الإسلامي الحقيقي الخالي من الشوائب والفلسفات الغربية، هو الذي يقدم خدمة جليلة للإسلام والمسلمين في مجال الشريعة الإسلامية، من خلال نشر العقيدة الإسلامية، وفتح أماكن العبادة وحفظ القرآن الكريم، وتدریس العبادات والفقہ الإسلامي لكثير من الشعوب التي دخلها الإسلام، وبقيت على العادات والتقاليد الوثنية كالسودان وغيرها، وصنف شيخ الإسلام ابن تيمية الصوفية إلى ثلاثة أصناف: "صوفية الحقائق، فقال: إنهم قوم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أصحاب اليمين، وفي كل من الصنفين: أي السابق والمقتصد، من قد يجتهد فيخطئ، ومنهم أي من صوفية الحقائق أيضا، من يذنب فيتوب أو لا يتوب، أما صوفية الأرزاق، فقال: هم الذين وقفت عليهم الوقوف، أي المستفيدين من دخل الأوقاف الموقفة على الصوفية فحسب، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق، أما صوفية الرسم لقد عرف الشيخ هذا الصنف من الصوفية بأنهم هم المقتصرون على النسبة، فاهتمامهم منحصر في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك، وقال أن

1 - عبدالمحسن سلطان. مرجع سابق. ص 21.

هؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وزي أهل الجهاد، ونوع ما من أقوالهم بحيث يظن الجاهل أمره أنه منهم وهو ليس منهم¹.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أن الصوفية هم أناس مجتهدون في طاعة الله تعالى، فأثم يسعون إلى فعل الخيرات وترك الدنيا وملذاتها ويبحثون على درجة أعلى بعد الأنبياء كغيرهم من الصديقين مثل: صديقوا العلماء والأمراء، وصديقوا العباد والزهد من البصرة وصديقوا أئمة الفقهاء من أهل الكوفة، ومنهم من نسب إلى التصوف طوائف من أهل البدع والزندقة، وأنكروهم حتى من بعض الصوفية أنفسهم².

ويضيف ابن تيمية أن "مشايخ الصوفية بعد التابعين في مقدمة أولياء الله والذين اشتهروا بالاتجاه الروحي والأخلاقي أمثال سعيد بن المسيب والحسن البصري وعمر بن عبدالعزيز ومالك بن أنس والأوزاعي وإبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي والشافعي الداراني وبشر الحافي وعبدالله بن المبارك وغيرهم كثير، وكان ابن تيمية يدعو إلى الاقتداء بهم، لأنهم سلكوا السبيل الصحيح فهم فقهاء ومحدثون ومدافعون

1 - شيخ الإسلام بن تيمية. مجموع فتاوي. مرجع سابق. ص 98-99.

2 - المرجع نفسه. ص 89.

عن العقيدة السلفية، إلى جانب ذلك كونهم زهادا عمقوا الحياة الروحية عند المسلمين بنظرياتهم التي انبثقت من الكتاب والسنة وهم شيوخ السلف في العصور الأولى"¹.

إذن التصوف الإسلامي كان ذا صبغة إسلامية كاملة، وظل بعيداً عن المؤثرات الأجنبية في القرنين الأول والثاني الهجري، وبعد ذلك تسربت إليه أفكار أجنبية فلسفية حملها بعض معتنقي التصوف من الفرس والهنود وغيرهما الذين أصبحوا من المتكلمين في الشأن الصوفي، ويذهب ابن خلدون "إن التصوف إسلامي النشأة، لكن دخل عليه الكثير من المؤثرات الأجنبية التي استطاعت أن تجعل من الطرق الصوفية مدارس متنوعة ومسالك متفرعة، تسعى كل طريقة إلى انتهاج أواراد خاصة بها وتجمع حولها المريدين والأتباع، وهذا ما جعل بعض الطرق الصوفية تبتعد كثيراً عن المفهوم الصوفي في صدر الإسلام وصارت الطرق الصوفية بما أدخلته من بدع في الدين بعيدة كل البعد عن طريق الدين الإسلامي الصحيح وشريعته الغراء فلقد تأثر التصوف الإسلامي بالمذاهب الهندية، وأن الأذكار التي صارت جزءاً من الطرق الصوفية ما هي إلا دليل على تسرب الطرق الهندية إلى الإسلام"².

وفي ذلك الوقت برز اتجاهان للتصوف "الاتجاه الأول : اتجاه الصوفية المعتدلين، يربطون

بين تصوفهم وبين الكتاب والسنة بصورة واضحة، وبعبارة أخرى : يزنون تصوفهم دائماً بميزان

1 - الطباوى محمود سعد. 1984م. التصوف في تراث ابن تيمية: (القاهرة). الهيئة المصرية العامة للكتاب للطباعة والنشر والتوزيع. ص 40.

2 - عبدالله عبدالرازق إبراهيم. 1410هـ 1989م. أضواء على الطرق الصوفية في القارة الأفريقية: (القاهرة - مصر). مكتبة مدبولي للطباعة والنشر والتوزيع. ص 15.

الشريعة، وكان بعضهم من علمائها المعروفين، ويغلب على تصوفهم الطابع الأخلاقي؛ الاتجاه الثاني: اتجاه الصوفية المستسلمين لأحوال الفناء ونطقوا بعبارات غريبة، وكانت لهم تصورات لعلاقة الإنسان بالله، كالاتحاد والحلول، وتصوفهم لا يخلو من بعض المنازع الميتافيزيقية في صورة بسيطة، وبعبارة أخرى نطلق على هذا الاتجاه على سبيل التجاوز الاتجاه الفلسفي، ونطلق على الاتجاه الأول الاتجاه السني"¹.

ويرفض أصحاب هذا الرأي كل الاتهامات التي وجهت للتصوف الإسلامي من حيث نشأته وأصالته بالكتاب والسنة المحمدية، ورفضوا كل الخرافات البدعية التي ألصقت بالتصوف مؤخراً، وحذروا من التلاعب بشأن تفسير بعض المفاهيم الفلسفية التي ينادي بها بعض مشايخ التصوف. فعلى سبيل المثال لا الحصر مفهوم الفناء الذي استخدمه الغزالي وبعض المتصوفة المعتدلين، وعبر عنه بقوله: "الفناء بالكلية في الله تعالى أي ترك كل ما عدا الله وطرحه جانبا، والانشغال فقط بذكر الله وعبادته، فلا يكون في بؤرة اهتمام الفرد، إلا الله وحده، فهو فناء عن الأشياء كلها شغلا بما فني به، كما قال عامر بن عبد الله: ما أبالي امرأة رأيت أم حائطاً، وهذا عند استمرار الذكر حتى يتلاشى الإنسان كجسده، أملاً في العروج إلى الملكوت الأعلى، والاتصال بالله تعالى، فلا يحس بوجود جسده"².

1 - السيد محمد عقيل بن علي المهدي. 1414هـ 1993م. مدخل إلى التصوف الإسلامي: (القاهرة - مصر). دار الحديث طبع ونشر وتوزيع. ص 112.

2 - عبدالحسن سلطان. مرجع سابق. ص 34.

وإن دخول بعض الأشخاص للتصوف بعقائد فاسدة ومضللة، تريد الانحراف بالتصوف من منشأه الإسلامي، وتحاول جعله من الفرق الضالة، بعدما كان من أقوى الطرق للعبادة والتقرب إلى الله تعالى، وقد حذر من ذلك الكثير من مشايخ الصوفية مراراً وتكراراً على محاربة الفرق الضالة التي تسيء للإسلام باسم الصوفية، فبعض المتصوفة، "يقولون بالحلول وهم طائفة لبست لباس الصوفية، وتزيت بزيتهم، وزعموا أن الله تبارك وتعالى يحل في أجساد يصطفونها، وهم بذلك قد خرجوا على الشريعة الغراء، وهم مقلدون للنصارى في قولهم باللاهوت والنسوت، وذلك بادعائهم أن الله تبارك وتعالى قد حل في بعض الأجساد، ومنهم طائفة مشهورة كان يتزعمها رجل يزنه أتباعه بالذهب، حيث كانوا يعتقدون أن الله قد حل فيه - والعياذ بالله- وهؤلاء قد انحلوا عن الدين وماهم من الصوفية"¹.

والمتصوفة هم الذين انفردوا بالعزائم في أفعالهم، وبيكارم الأخلاق في أحوالهم، وأسسوا مذهبهم على تقوى من الله، وحاول الكثير منهم محاربة الشبهات التي تغلغت في أفكار الصوفية، من خلال الدعوة إلى ضرورة ميزان كلام مشايخ الصوفية بميزان الشريعة الإسلامية، ونبه أهل التصوف الصادقين من العلماء والمشايخ على أنه، "اندرس بينهم أناس تشبهوا بهم وتزيوا بزيتهم، وتظاهروا بمظهرهم حتى ظن الناس أنهم منهم وماهم منهم، فمعد كانوا يظهرون غير ما يبتنون ليس لهم من غرض سوى حب الرئاسة والمشيخة، قصد تضليل العوام،

1 - ياسين رشدي. 1413هـ 1993م. الطريق إلى الله التصوف ماله وما عليه: (القاهرة - مصر). نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. سلسلة كتب إسلامية (10). الطبعة الثانية. ص 46.

واستدرار أموال الناس، ولعل الإمام الشافعي رحمه الله كان يقصدهم بقوله: ودع الذين إذا أتوك تنسكوا .. إذا خلوا ذئاب خفاف¹.

إضافة لما سبق: فإن الصوفية النقية جاءت لترسخ الشريعة الإسلامية في بقاع الأرض، وهذا ما يؤكد العلماء والمشايخ الأوائل من المتصوفة وغيرهم، والانتقادات البناءة التي وجهت للصوفية كانت من المتصوفة أنفسهم من أجل الحفاظ على هذا الطريق الإسلامي، فرفضوا كل الأفكار الفلسفية التي ينادي بها البعض من الذين يدعون الصوفية وماهم بصوفية، لكنهم لبسوا لباسها، وظلوا من شخصيات أهل التصوف، فهناك بعض فرق الصوفية تجيز الإباحية في ممارسة المحرمات عند وصول الإنسان إلى درجة الفناء، فالقول "بالإباحية لم يقل به أحد من المعتبرين، وإنما قال به بعض الغلاة، زعموا أن الإنسان إذا وصل إلى حد الفناء سقطت عنه التكاليف، وأبيحت له المحرمات، وكذا في كلام أبي نعيم، قال القاضي عياض ما معناه: الإجماع على تكفير من قال بتعطيل الأوامر والنواهي من المتصوفة وأصحاب الإباحة، وقال القونوي في شرح التعرف: يحكى عن طائفة من أهل الزيغ والضلال أن العبد إذا وصل إلى الله سقطت عنه التكاليف، وعللوا ذلك بأن المقصود من التكاليف هو القرب والوصول إلى الله، فإذا حصل المقصود فلا حاجة إلى الوسيلة، وهذا كفر محض وإلحاد في دين الله، فإن

1- صلاح مؤيد العقبى. 2002م. الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها: (بيروت - لبنان). دار البراق للطباعة والنشر والتوزيع. ص 43.

من المعلوم بالضرورة أن أقرب الناس إلى الله أنبيأؤه ورسله، ولم يرتفع عنهم التكليف إجماعاً، فمن دونهم أولى"¹.

وفي هذا الشأن رفض حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، "القول بأن العبارات في الوصول، والاتحاد، والحلول تحمل معنى حقيقياً، بل لا بد من الشرح والتصحيح، إعراضاً عن الفتنة وتشويش عقيدتهم، وحتى لا تتهم الصوفية بالكفر والإلحاد من غير حق، ولذلك على أرباب الأحوال معرفة حدود الشريعة وموضع أحوالهم في الدين.. فقد تصدى حجة الإسلام الإمام الغزالي لما تحمله هذه الأقوال من مضمونات، بعضها صحيح وبعضها غير ذلك، فيميز بينها، ويحدد لها المدلولات التي يجب الأخذ بها، نابذاً منها ما لا يستقيم مع ظاهر الشريعة، فينفي ما يراه مستحيلاً في حق الله تعالى"².

ويقول حجة الإسلام الإمام الغزالي: "الفناء عند الصوفية معناه: أنه لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق"³.

1 - الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. مرجع سابق. ص 63.
2 - محمد ناصر بن محمد تاب. مارس 2005م. منهج المعرفة الذوقية عند الإمام الغزالي. بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في معارف الوحي والتراث بقسم أصول الدين ومقارنة الأديان. كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا. ص 139.
3 - الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى في سنة 505 هجرية. 1412هـ 1992م. إحياء علوم الدين. تحقيق أبي حفص سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران: (القاهرة). دار الحديث للنشر والتوزيع والطباعة. الجزء الرابع. الطبعة الأولى. ص 378.

فالتصوف الإسلامي قد عرف الكثير من الأدعياء وأصحاب الضلالات والانحرافات، الذين لم يفقهوا حقيقة وجوهر التصوف الصادق المبني على الكتاب والسنة المحمدية، بل ظنوه رسوماً ومظاهر ولبسوا المرقعات، وقد أضروا بهذه الحركة الروحية عندما لجأ بعض الصوفية إلى الاعتماد على التواكل والتكاسل، فكانوا عالة على غيرهم، وحملاً ثقيلاً على كاهل أممهم وشعوبهم، والتصوف الحقيقي ما هو سوى رباط وجهاد ومحاربة النفس الشريرة، وليس على الإطلاق هجران للعالم والأوطان.

"وإن الذين هاجموا التصوف والطرق الصوفية نظروا إلى القشور وتركوا اللب، نظروا إلى ما يفعله بعض الجهلة من المريدين والمتكسبين من الانتساب للطرق من أمور لا يرضى عنها الإسلام؛ ولا يضر التصوف والطرق الصوفية ظهور هذه الفئة من المتواكلين والدجالين والمشعوذين والبلهاء، الذين يتكسبون من وراء الخرق والهلاهيل، والانتساب للطرق، فليس ذكر الله بهذه الصورة البشعة، التي يذكر بها الدوايش والمخدوبون من الطريق في شيء، وليس من التصوف، ولا من الطريق إقامة هذه الأصوحة العظيمة لشيخ الطرق وتقديس مريديهم لها، وتوسلهم بهذه الأجساد الطاهرة الراقدة تحت الشئ"¹

والحركة الصوفية من أروع الحركات الروحية في التاريخ الإسلامي، حيث استندت على الكتاب والسنة المحمدية، ومن يخالف ذلك ليسوا بصوفية، فقد قامت بأعمال جلييلة خدمة

¹ - عامر النجار. مرجع سابق. ص 9.

للإسلام والمسلمين، انطلاقاً من نشر العقيدة الإسلامية في كثير من أذغال العالم، وتغلغل رجال الصوفية في المجتمعات التي لا تعرف عن الإسلام شيئاً من قبل، وأقاموا فيها المدارس والخلأوي لتحفيز القرآن الكريم والعبادات والفقهاء، وإلى جانب ذلك رفعوا لواء الجهاد ضد الصليبيين والمستعمرين، وأسسوا حركات الجهاد في الكثير من الدول كالحركة السنوسية في ليبيا، التي قادت النضال ضد الاستعمار الإيطالي، بقيادة الشيخ عمر المختار، والثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، بقيادة الشيخ عبد القادر الجزائري، وغيرهما من مشايخ الصوفية الذين حملوا راية الجهاد.

المطلب الثاني: آراء وأدلة المعارضين للصوفية

لقد كان التصوف الإسلامي، منذ بروزه، عرضة لانتقاد بعض الفرق الإسلامية، إلا أن شدة هذا النقد كانت تخفت حيناً وتعلو حيناً، وكان الخوارج أول الفرق الإسلامية انتقاداً للتصوف، إذ أخذوا على المتصوفة طاعتهم لسلطان الجور، وقولهم بأن النية أفضل من العمل، وسخط الشيعة على المتصوفة، لقولهم بالولاية وبالقطب الغوث، مما يعطل علم الإمامة عند الشيعة، فضلاً عن أن تجمع المريدين حول مشايخ الصوفية حرم الشيعة من رصيد بشري هائل، كان من الممكن استمالاته إلى التشيع وتجميعه حول الإمام الشيعي الذي ادعى لنفسه

العصمة، متطلعاً إلى زيادة سلطانه وزيادة أتباعه، لاسيما بعد انحسار النفوذ السياسي للخلفاء العباسيين، منذ تزايد نفوذ الأتراك وتسلطهم على الخلافة العباسية"¹.

ويقول السراج في مقدمته لكتاب اللمع "وأعلم أن في زمننا هذا قد كثر الخائضون في علوم هذه الطائفة، وكثر أيضاً المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها، والمجيبون عنها وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتاباً قد زحرفه، وكلاماً ألفه ولست بمستحسن منهم ذلك، لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا في هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات، ونطقوا بهذا الحكم، إنما تكلموا بعد قطع العلائق، وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضيات والمنازلات والوجد والاحتراق والمبادرة والاشتياق، إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله عز وجل طرفة عين، وقاموا بشرط العلم، ثم تحققوا في العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل"².

وقد اتهم منتقدو الصوفية بعض أعمال الصوفية، كالكرامات التي يمارسها الكثير من مشايخ المتصوفة، وزيارة القبور والتبرك بها، والدعاء لغير الله سبحانه وتعالى، عن طريق مناداة شيوخهم المتوفيين، إلا أن الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين أشار إلى أن بعض ممارسات أهل الصوفية مؤكدة في السنة النبوية، ولا يجوز انكارها أو رفضها قطعاً، حيث قال: "زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل

1 - محمد بركات البيلي. مرجع سابق. ص 46.

2 - أبي نصر السراج الطوسي. مرجع سابق. ص 11.

التبرك مع الاعتبار، وقد كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم نهي زيارة القبور ثم أذن في ذلك عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَعْفِرَ لِأُمَّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي. وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أُرْوَرَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي)¹. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا. وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ حُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثِ، فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ. وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّيْدِ إِلَّا فِي سِقَاءٍ. فَاشْرَبُوا فِي الْأَسْقِيَةِ كُلِّهَا. وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا².

ويدعي أصحاب هذا الرأي أن التصوف الإسلامي بطبعه ليس له أية ضوابط يضبط بها، ولا حدود معلومة لكي يعرفها السالك إلى طريق التصوف، وهذا الإطلاق يؤدي بالشخص المتصوف إلى مخالفة الكتاب والسنة الحميدة، "ومع أن قلة قليلة من شيوخ المتصوفة، لم يطمس عقلهم التيار الصوفي المندفق، من مصادره العديدة التي وفدت من الأفكار الهندية واليونانية والمسيحية، وإن كان قد شاب صحة عقيدتهم، إلا أن السمة العامة لمذاهب التصوف والقاسم المشترك، والنهج المميز للمتصوفة في تناول أمور العبادة وغيرها، هو ما يسمونه التدوق، وهذا المعيار أو هذا النهج اتسع لكل الميول والعواطف والمشارب الإنسانية، التي قد تكون في بعض منطلقاتها تمثل تناقضا فيما بينها، فضلاً عن أن هذا

1 - الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج المتوفى 261هـ. 1418هـ - 1998م. صحيح مسلم كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه: (بيروت - لبنان) دار الكتب العلمية. الجزء الثاني. الطبعة الأولى. ص 72.
2 - المرجع نفسه. ص 73.

التذوق الذي يخرج عن قيد النص الشرعي ودلالته المباشرة إلى تناول التذوق بما يفسد المعاني
ويؤول الالتزامات"¹.

ووجه الانتقاد على الدور السلبي لقيادات الصوفية أثناء الحقب الاستعمارية على العالم
العربي والإسلامي، ويدلل على ذلك أن الكثير من الصوفية أقاموا علاقات صداقة مع قيادات
الاستعمار وتبادل العلاقات والزيارات، فالدول الغازية ترفض أية علاقات في الكثير من
الاجتمعات الإسلامية، إلا مع شيوخ الصوفية، وهذا ما يعتبره البعض تواطؤ من قيادات
الصوفية على دورهم الرئيسي في الجهاد ضد الغزو الأجنبي، فالمتصوفة اهتموا بالجهاد الأكبر
وهو جهاد النفس، وابتعدوا عن الجهاد الأصغر كملاقاة العدو بالسلاح، ويدلل على هذا
القول، "عندما اقتسمت بريطانيا وفرنسا أكثر بلاد المسلمين، كانت بعض فرق الصوفية غارقة
في أذكارها وكأن شيئاً لم يكن، بل يقيم للمعمد البريطاني لدى سورية الجنرال سبيرس حفلة
ذكر، على طريقة المولوية يدعوها إليها الشيخ هاشم العيطة شيخ الطريقتين السعدية والبدرية،
حيث أنشدت الأناشيد وقتلت المولوية، ثم حطبت صاحب الدار باسمه واسم إخوانه، مثنيا
على رئيس الجمهورية، والملك جورج السادس والمستر تشرشل والجنرال سبيرس، وفي الجزائر

1 - حسن صادق. 1414هـ - 1993م. جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: (القاهرة - مصر).
مكتبة مدبولي. الطبعة الثانية. ص 204.

كانت فرنسا تشجع الطرق الصوفية، وتسمح لهم بإقامة أذكارهم والخروج في أعيادهم بالطبول والرايات"¹.

وفي هذا الصدد يرد العلامة الشيخ محمد بشير الشقفة على رافضي التصوف الإسلامي، حيث قال عنهم: "معدورون الذين يرفضون اسم التصوف، ومتكلفون أولئك الذين يبالغون في البحث عن أصله، واسمه، واشتقاقه، ومغبونون بل خاسرون أولئك الذين يرفضون كل ما فيه عصبية دوماً تمحيص أو ترو، وظالمون أولئك الذين يرفضون كل من تسمى بهذا الاسم، دون التعرف على أحوالهم، وأعمالهم واعتقادهم، وجاهلون أولئك الذين يعممون حكماً واحداً على الكل، أو حكم القليل على الكثير، أو حكم المجموعة على الجماعة، أو حكم الفرد على سائر الناس، أو حكم الجاني على سائر أهل بلده"².

وقد اعتبر الشيخ الصادق عبدالرحمن الغرياني، أن ما تقوم به بعض المتصوفة هو ما يسميه غلو في الدين، وهذا مرفوض من الناحية الشرعية ولا يجوز الأخذ بها، فالمتصوفة "الذين اخترعوا في العبادات طرقاً ووجوهاً مذمومة، فمقرّبوا إلى الله تعالى باللغو واللعب والرقص والغناء، وغلوا في الأنبياء وفي الأولياء وفي نسبة الكرامات إلى الأولياء، وخرجوا في التعلق بهم أمواتاً وأحياء عن سبيل القصد والشرع، بالنذر إليهم والذبح عندهم، وإقامة الاحتفالات

1- محمد العبد وطارق عبدالحليم. بدون سنة النشر. *الصوفية نشأتها وتطورها*: (الرياض - السعودية). الناشر مكتبة الكوثر للطباعة والنشر والتوزيع. دراسات في الفرق (1). ص 93.

2 - عمران عبدالله كامل. 1422هـ-2001م. *التصوف بين الإفراط والتفريط*: (بيروت - لبنان). دار ابن حزم. للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. ص 43.

السنوية في أضرحتهم، والخوف من ضررهم والرجاء في نفعهم، والتوجه إليهم لقضاء الحوائج وتفريج الكرب، فحولوا التدين من منهج حياة يقوم على الفقه والتبصير والعلم والمعرفة، والقدوة الحسنة، والأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية، لهداية الأمم والشعوب، كما كان في عصوره النقية الذهبية"¹.

ناهيك على أن الطرق الصوفية في الآونة الأخيرة دخلت في طرق مظلمة نتيجة لبعض ممارسات الصوفية، مما أبعدها بقدر كبير عن الشريعة، حيث ألصقت إليها التهم، ككونها تبحث عن المال والجاه، فتحولت الصوفية من رجالات دينية تهتم بالشؤون الدينية إلى رجالات سياسية، حيث انغمس الكثير منهم في مخالف السياسة، فقاموا بخوض سباق الحكم، حيث دعموا الحكام والأحزاب السياسية، بل هناك من المتصوفة من تقلدوا مقاليد سياسية، وعلى أثر ذلك اختلفت الجهات السياسية لمشايخ الصوفية، وانهم بعضهم البعض بالانحياز والخيانة، وأدت إلى انقسام الطرق الصوفية إلى طرق قبلية أو جهوية نتيجة للحراك السياسي الذي دخلت فيه الصوفية، وبدأت تحمل في طياتها برامج الأحزاب السياسية، هذا جانب من أسباب انقسامها الذي أثر سلباً على نظرة العامة للصوفية، لأن السياسة أساءت للصوفية .

1 - الصادق عبدالرحمن الغرياني. 1422هـ - 2001م. الغلو في الدين ظواهر من غلو التطرف وغلو التصوف: (القاهرة). دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. الطبعة الأولى. ص 37.

ويقول الإمام أبو عبدالله بن الطويبي الصقلي رحمه الله تعالى حول الرد على بعض الادعاءات التي أسندت للصوفية، حيث قال: "ليس التصوف لبس الصوف.. ولا بكاءك إن غنى المغنون، ولا صياح ولا رقص ولا طرب... ولا تغاش كأن قد صرت مجنوناً، بل التصوف أن تصفو بلا كدر... وتتبع الحق والقرآن، والدين، وأن ترى خائفاً من الله ذا ندم على ذنوبك طول الدهر محزون"¹

في ختام هذا الفصل عن التصوف الإسلامي والطرق الصوفية نستخلص الآتي :

فمن اشتقاق التصوف الإسلامي أرجعه الكثير إلى مصادر إسلامية وفارسية ومسيحية، فيرى فريق اشتقاقه من الصوف، ويرى آخر اشتقاقه من أهل الصفة، ويرى ثالث اشتقاقه من الصف الأول ويرى رابع اشتقاقه من كلمة يونانية، إضافة إلى مصادر أخرى جاءت منها كلمة التصوف، وكل رأى له مبرراته وحججه مما يجعله يضع أصل كلمة التصوف في هذا الاشتقاق أو غيره.

والباحث يرى أن اشتقاق كلمة التصوف الإسلامي من الصوف، لما له من معاني إيمانية كالتقشف، والفقير، والزهد، والعبادة... وغيرها من الطرق المؤدية للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وأن الصوفية الأوائل يجذون لباس الصوف، اقتداءً بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله وكذا الصحابة. رضوان الله عليهم أجمعين.

1 - عمران عبدالله كامل. مرجع سابق. ص 82.

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي جاء بها الله سبحانه وتعالى والتي خص فيها

أناس نتيجة لظاهر اللبسة.

أما الحديث عن مفاهيم التصوف الإسلامي فهي متعددة، و يصعب حصرها، فمن خلال الدراسة اتضح للباحث أن الكثير من العلماء والمشايخ قدموا مفهوما للتصوف، رغم أنها تختلف في الكثير من الأحيان لفظا وليس مضمونا، فالصوفي ابن وقته، ففي كل مرحلة من مراحل التصوف قدمت فيها العديد من مفاهيم الصوفية، ولكن تتفق كل تعريفات التصوف في المضمون، فهي تنطلق من أن التصوف الإسلامي أصوله كتاب الله والسنة النبوية، وهو طريق من طرق العبادة، وتؤكد على الزهد والتقشف والفقر وتلاوة القرآن الكريم، والذي لا يحفظ القرآن ليس صوفيا أو من أهل الصوفية، وتصفية القلب من الكدرات والتمتع بالأخلاق الطبيعية، والتغلب على النفس الشريرة التي وجدت في الإنسان، وأن الصوفي يكون قدوة في عبادة الله من بين سائر الخلق، وأن يكون صادقا مخلصا عابدا قارئا، والصوفي يكون القدوة والمثل، ذا أخلاق حميدة تاركا الدنيا وملذاتها، ولقد أخفق الباحثون والمختصون في الشأن الصوفي في إيجاد تعريف علمي شامل للتصوف.

ولقد اختلف المؤرخون حول جذور نشأة التصوف الإسلامي، والخلاصة ثلاثة آراء:

فالرأي الأول: يرجع إلى أن التصوف الإسلامي نشأ نشأة إسلامية، ومستمد من

القرآن الكريم والسنة المحمدية.

والثاني يقول: إن التصوف الإسلامي ليس له علاقة بالإسلام، أي أنه وافد، وليست الحياة الإسلامية بحاجة إليه، وأنه مبتدع، وغير مرتبط بالأصول الشرعية، وإنما هو جسم غريب غرس في قلب الإسلام، من أجل تمزيق الإسلام والمسلمين.

والرأي الثالث يقول: إن التصوف الإسلامي نشأ نشأة إسلامية، لكنه دخلت عليه أفكار غريبة وفرغته من محتواه الإسلامي، فالكثير من العلماء والباحثين يتفقون على أن التصوف بدأ شائعاً في القرن الثاني والثالث الهجري، فلما اتسعت الفتوحات الإسلامية، ذهب الكثير من الناس في التسابق على الدنيا وملذاتها، ومقابل ذلك اختص مجموعة من العباد والزهاد والنسك على حث المسلمين على التمسك بالعتيدة الإسلامية، وعدم الانغماس في الدنيا وملذاتها مما يتعارض مع الدين الإسلامي، ومحاربة الظواهر الرديئة التي دخلت ديار المسلمين، من الخمر والزنا، وكلها تتنافى مع القرآن الكريم والسنة النبوية، واصطلح على تسميتهم الصوفية والمتصوفة.

وعندما زاد عدد المتصوفة في كثير من البلاد الإسلامية، ظهرت الحاجة إلى تكوين جسم يضم أهل التصوف، تحت مسمى الطرق الصوفية، وقد قام به عدد من مشايخ التصوف المشهورين في ذلك الوقت، حيث انطلق كل شيخ من المشايخ الكرام إلى تأسيس طريقة صوفية تستمد أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية، ووضع لها إطاراً تأسيسياً وقانونياً، ينظم العلاقة داخل الطرق الصوفية، فالشيخ يكون على هرم الطريقة، وهو يقبل

المريدين والمنتسبين للطريقة، بعد تلقينهم بعض أوارد الطريقة، وهناك عهد بين الشيخ والمريد، على التزام المريد باللوائح التنظيمية للطريقة، فليزم الشيخ مريديه بحفظ القرآن الكريم في الخلوة، ويقرأ الأحاديث النبوية، وغالباً ما تكون أسماء الطرق الصوفية باسم الشيخ، وتحتفظ كل طريقة بأورادها، ولكنها تتفق في مجملها على أنها لا تخرج عن تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية، وعلى إثر ذلك انتشرت تعاليم هذه الطرق الصوفية في كثير من دول العالم الإسلامي، وكونت طرقاً أخرى، حتى أصبح من الصعب حصرها، وبدأت تقوم بدورها في الحفاظ على العقيدة الإسلامية وتعليم أصولها، وقام مشايخ الطرق الصوفية بدور لا يمكن إنكاره أو جحوده في نشر الإسلام في كثير من بقاع العالم من أفريقيا وآسيا، ومازالت آثارها مترسخة إلى وقتنا الحاضر، إلى جانب ذلك رفع أهل التصوف لواء الجهاد، وهم من قادة المجاهدين الذين قاوموا الغزو الاستعماري، كما أصبح شيخ الطريقة له دور مميز في الحياة الاجتماعية في أغلب البلدان الإسلامية، وهناك الشافعي شعبي جوههم، حتى أصبحوا أهل الحل والنهي في مجتمعاتهم، ورغم محاولة البعض التشكيك فيهم، إلا أنها باءت بالفشل، نتيجة لأسلوب اللين من أهل التصوف .

وفي إطار قبول ورفض التصوف الإسلامي، يوجد خلاف شاسع بين الطرفين، ومن

الصعب التوفيق بينهما.

فالطرف المؤيد يرى أن التصوف خرج من لب العقيدة الإسلامية، ولا يمكن الفصل بينهما، ويهتمون بعض الحركات الدينية بمحاربة التصوف، محاولة منهم لطمسه من الواقع الإسلامي، من أجل فسح المجال لغرس أفكارهم الإسلامية المتشددة، واختلفت معهم الصوفية التي تتبع منهج إسلامي وسطي، متسامح ومتحاور، بعيداً عن التعصب والتشدد وتجاهل الآخرين، بعض النظر عن ديانتهم، فالحوار مثلاً تراه الصوفية جانباً مهماً للحياة الإنسانية، و ضروري لها، ولا ينكر أصحاب هذا الرأي أن هناك أشياء دخيلة دخلت على التصوف الإسلامي، جاءت بما بعض العناصر التي اعتنقت التصوف، وبدأوا يمارسون أشياء فلسفية بعيدة عن جوهر التصوف، ويدعون الصوفية وما هم بصوفية، وإنما رفعوا شعار الصوفية من الظاهر والكفر والإلحاد في جوهرهم، ونبه الكثير من أهل التصوف على ضرورة إجراء إصلاحات، ومحاربة الظواهر الهدامة، التي من شأنها أن تشوه التصوف.

أما الطرف الثاني فهو يرفض التصوف الإسلامي شكلاً ومضموناً، ويعتبره جسماً غريباً غرس في قلب الدين الإسلامي، ولا يوجد ما يدل على أنه موجود في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. والصحابة، وكلها محاولات واستنادات باطلة، استنبطها أصحابها من الزهاد والعباد، وهم ليس لهم علاقة بظهور الصوفية، وهم أبرياء من ذلك، والصحيح عندهم أن التصوف أفكار فارسية ويونانية وهندية وغيرها، من الأفكار الأجنبية التي لا تمت للإسلام بصلة، ودلل ببعض ممارسات المتصوفة التي تؤدي للإلحاد والكفر باسم التصوف الفلسفي.